

من الشجرة إلى الجذمور (النسق والعلامة عند جيل دولوز) From the Tree to the Rhizome (system and sign of Gilles Deleuze)

حكيم قاسمي*

جامعة الجزائر 2.

البريد الإلكتروني المهني: hakim.gacemi@univ-alger.dz

تاريخ النشر

2023/06/01

تاريخ القبول

2023/03/30

تاريخ الإيداع

2022/12/04

الملخص: يسعى هذا المقال إلى مقارنة مفهوم "العلامة" من منظورين مختلفين، يقوم كل منهما على منطلقات وخلفيات معرفية متباينة. حيث يتيح الاهتمام بهذا المفهوم معاينة الملامح العامة، التي تشكل فلسفة من الفلسفات. سنشبهها (أي العلامة)، في هذا المقام، بالومضة، التي لا بدّ من اقتفاء أثرها، لتحسّس الدروب والمسارب ضمن إقليم أو فلسفة معينة. وسنرتاد، وإن بشكل مجمل، إقليمين؛ يتأسّس الأول على تصوّر لسانی شجري قوامه التجذّر والتفرّع والصلابة والارتفاع العمودي، والثاني على رؤية يمكن نعتها بالأنطولوجية، وهي جذمورية أو عشبية، انسيابية وأفقية، مرنة، تتمدّد بين الظلال والهوامش.

الكلمات المفتاحية: النسق، العلامة، اللسانيات، الجذمور.

Abstract: This article seeks to approach the concept of "sign" from two different perspectives; both of them are based on different standards and backgrounds. Where interest in this concept allows the public features, which constitute a philosophy of philosophies. We will resemble it, in this regard, with a flash, which must be tracked, in order to sensitize the paths and the period within a specific region or philosophy. And we will consider, in the same way, two regions; The first is based on the perception of a tree tongue based on roots, branching, hardness and vertical height, and the second is a vision that can be called ontologicalism, which are roots or herbal, smooth and horizontal, flexible, that extends between shadows and margins.

Keywords: the system; Keywords; the sign; Linguistics; Rhizome

1. مقدمة:

يتبنى الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز (Gille Deleuze) (1925-1995) فكرة انفتاح النسق المعرفي وخروجه عن الثوابت والمرتكزات والتراكمات الالاستيمولوجية التي أدت إلى تشكّل صورة نمطية للفلسفة، مرجعها التاريخ، ومحتكمها أساطين الفلسفة من أفلاطون إلى هيدغر، ويمكن تمثيل فلسفة جيل دولوز بلوحة الفنان البولندي توماس كوبييرا المعروفة بـ: "الخروج عن القطيع"؛ فدولوز يخرج عن فكرة تاريخ الفلسفة، واجترار أفكار الفلاسفة، والتفكير داخل سياج النسق المغلق، ويجترح آفاقا جديدة تتجنب السقوط في فخّ المنعرج الفلسفي الرائج، والمهيمن على الكثير من الفلاسفة في وقته، ومن بعده كذلك، وهو المنعرج اللساني- الفينومينولوجي، لذا أبدع جيل دولوز مفاهيمه الخاصة، بعد أن استنطق وتتبع أثر الاختلاف في كتابات بعض الفلاسفة مثل فردريك نيتشة وهينري بريغسون وليينتر ودايفيد هيوم وباروخ سبينوزا، دون أن يكون وفيها لأفكارهم وأطروحاتهم، وإنما ليتخذ منهم مطية لإبراز اختلافه وتقرّده، وليرسم -مستعينا بتقنية الكولاج- لوحة فنية من صور الفلاسفة آنفي الذكر.

يحسب جيل دولوز على فلاسفة ما بعد البنيوية، وتحديدا على فلاسفة الاختلاف، غير أنه لا كبقية فلاسفة هذا الاتجاه، لم يرفض تبني فكرة النسق؛ فالنسق عنده مفهوم لا يمكن الاستغناء عنه، لكن ينبغي التجديد فيه، وإعادة النظر في مركباته، لذا أقام صرح فلسفته على نسق متعدد، قوامه الواحد والكثرة في الوقت نفسه. هذا الطرح الذي يبدو أنه يقوم على مفارقة، هو ما سنحاول أن نتعرض له في هذا المقال، متخذين من مفهوم العلامة مدخلا لقراءة التعدد في النسق الدولوزي، فكيف استطاع هذا الفيلسوف أن يخرج مفهوم العلامة من المنطق الشجري نحو منطق جذموري؟

2. في مفهوم العلامة:

يعتبر مفهوم العلامة من المفاهيم التي عرفت مقاربات مختلفة، بسبب اختلاف المنطلقات الابستمولوجية المعتمدة في كل مقارنة، وهو ما جعل محاولة تقديم تعريف قار لها يتحيز، بالضرورة، لتوجه دون آخر؛ فهي في العُرف اللساني السوسيري اقتران دال بمدلول، وسيرورة تدليل منطقية تحتكم إلى ثلاثة تحولات عند شارل ساندرس بورس، أما روني جيرار -على سبيل المثال- فيرجعها إلى العنف التأسيسي (الرويسي، 2021، صفحة 324)، وفي كل حقل من هذه الحقول الثلاثة نحن إزاء مسطح مختلف عن الآخر: لساني، منطقي، وأنثروبولوجي/ لاهوتي، والقائمة لا تستقر عند هذا الحد؛ إذ ما من فلسفة جادة تهدف إلى إحداث قطيعة، وتشديد مسطح مغاير إلا وأعادت النظر في هذا مفهوم.

فلو أرخينا السمع، مثلاً، إلى تعريف إمبرتو إيكو الذي يرى بأن العلامة هي: "كل شيء أو حدث، يحيل على شيء ما أو حدث ما" (إيكو، 2010، صفحة 76) أو "هي دائماً ذلك الشيء الذي يفتح على شيء آخر" (إيكو، 2005، صفحة 110) لوجدنا بأن هذا التعريف في الحقيقة هو امتداد للتقليد البورسي، الذي يتعامل معها كوسيط وسلسلة من الإحالات، يطلق عليها اسم السيميوزيس (بنكراد، 2003، صفحة 61)، ولعل هذا التوجه ما كان ليحظى بما لقيه من قبول عند المشتغلين بالحقل السيميائي -مقارنة ببقية التوجهات- لولا طابعه الديناميكي في مقارنة الظواهر الثقافية.

وقد اضطلعت السيميائيات بدراسة العلامات الدالة بأصنافها الثلاثة: المؤشر index والأيقونة icone والرمز symbole¹ وهو ما استثمرته مجالات علمية ومعرفية مختلفة كالطب، والأرصاد الجوية، والملاحة، وعلم الحيوان، والأبحاث العسكرية والإستراتيجية، والدراسات الإعلامية والأدبية وغيرها، وما العلامة اللسانية -واللسانيات عموماً- إلا جزء من هذا الحقل العام الذي بشر به، من قبل، فرديناند دي سوسير، وأطلق عليه اسم السيميولوجيا (دي سوسير، 1984، صفحة 27). غير أن واقع الحال، وكما عبّر عنه

رولان بارت، هو أنّ السيميولوجيا نفسها استحالت إلى "نسخة خجولة من اللسانيات" (بنكراد، 2012، صفحة 268)، بعد أن فرضت هذه الأخيرة منطقها على مختلف مجالات العلوم الإنسانية. وهو ما جعل الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز يسعى إلى التملّص من هذا المنطق، باستحدثه لمجموعة من المفاهيم، يحكمها نسق متعدد، في مقابل النسق المغلق أو الشجري.

3. ميتافيزيقا الشجرة أو النسق المغلق:

لا نقصد بكلمة "شجرة" التمثيل أو الاستعارة، بل هي صورة أنتجت واقعا، ظل إلى حقب طويلة يهيمن على الثقافة الغربية وثقافات أخرى، فمن شجرة فورفوريوس أو بورفيريو التي نسّق بها الأجناس والأنواع ونظّم بها أسس المنطق، إلى شجرة المعرفة لغريك هنريكز، مروراً بشجرة الأنساب، تلقي الشجرة بظلالها على مجمل التفكير الإنساني وخاصة الغربي، إذ تحيل على فكرة الأصل بجذورها، والعلو بارتفاعها، والصلابة والثبات بجذعها، وهو ربّما ما جعل الفيلسوف الفرنسي رونييه ديكارت يشبّه الفلسفة بشجرة جذورها الميتافيزيقا، وجذعها الفيزياء، وأغصانها بقية العلوم، لذا اعتبرت الميتافيزيقا بمثابة الأساس لكل الفروع الأخرى. وبدا كأنّ الفلسفة هي أمّ العلوم، وكل العلوم تشتق من رحمها (نعيم، 2010، ص55)، فالشجرة تحيلنا دائما على ثنائية الأصل والفرع، والمركز والهامش، والدال والمدلول، والنسخة والنموذج... وهي ثنائيات تقوم على فكرة التشابه ومحاكاة الأصل التي تعود إلى فلسفة أفلاطون، وتعتبر هذه الفكرة هي "المؤسسة للميدان الذي ستعتبره الميتافيزيقا ميدانها الخاص، إنه مجال التمثّل الذي يعجّ بالنسخ-الأيقونة، تلك النسخ التي لا تتحدد في علاقتها الخارجية مع موضوع معين، وإنما في علاقة صميمية مع النموذج والأساس" (العالی، 1991، ص101-102 بتصرف).

تضرب فكرة النسخة طبق الأصل، أو فكرة التطابق والتماثل، في عمق تاريخ الفلسفة؛ فأفلاطون في الكتاب العاشر من "الجمهورية"، بيّن على لسان سقراط أن السرير الذي يرسمه الرسّام ما هو إلا محاكاة لسرير النجار الذي هو بدوره محاكاة للسرير الحقيقي صنيع الله، إذن فالرسام يقوم بمحاكاة المحاكاة، أي أنه ابتعد عن الحقيقة بدرجتين. ومن هنا نفهم سبب طرد أفلاطون للشعراء من جمهوريته المثالية (أفلاطون، 2004، ص504). فأعمالهم الفنية ليست مطابقة للأصل؛ أي أنها سيميولاكر أو نسخة زائفة، وهو سبب كفيل ببعث الخوف والريبة؛ إذ كلما ابتعدت النسخة أو الأيقونة عن المثال والنموذج باتت مصدر شك وإرباك، وأصبح من المفيد على العاقل التخلّص منها، بل والتحذير من شرّها.

إنّ أفلاطون، من منطلق نظريته في المثل، أقام صرح الميتافيزيقا الغربية، على أسس المطابقة والتشابه والنسخ، وتحييد المعارض والمختلف والاستيهام، وهو ما لا نزال نسمع صداه في بعض ميولات المستهلكين نحو السلع الأصلية، التي أطاح بها الشيطان الصيني بصناعة نسخة أكثر أصلية من الأصل نفسه؛ فأين هو الأصل وأين الشبيه؟ هذا هو السؤال الذي أربك جان بودريار، وهذا هو الوضع (الغريب) الناتج عن التناسخ السرطاني للسيميولاكرات، الذي أوصله إلى نفي الواقع واعتباره معطلاً؛ "لقد توقف الواقع [يقول بودريار بخيبة ربّما] عن أن يكون واقعا مادام لم يعد هناك أي متخيّل يحيط به. وهو أصبح واقعا زائفا من إنتاج نماذج مموهة داخل فضاء فائق لا مرجعية ولا محيط خارجي له." (بودريار، 2006، ص38) نستطيع أن نقرأ في أطروحة بودريار ذلك المتصوّف الذي حيّره عبثُ الواقع، وشوّشُ الأشياء وضبابيّتها، فراح يؤرّخ "لأقول شمس السماء وأنوارها التي لا تصل إلى المدن الفاسدة، ما فسخ المجال أمام عدمية أنوار الوسيط والعدسة لتخترق، كالليزر، الواقع المعاش ولتنزل الموت به." (بودريار، 2008، ص82 بتصرف) تقترب رؤية بودريار -في بعض جوانبها- من رؤية والتر

بنيامين للفنّ، فالعمل الفني الأصيل يفقد هالته إذا ما تمّ استنساخه؛ فالنسخة، كما بيّن بنيامين، رغم أنها تعمم الفنّ وتجعله مشاعا، إلا أنها تزيج عنه، من جهة أخرى، ذلك العبق والعنقاة التي ورثها من زمان ومكان ماضيين. (جيمينيز، 2009، ص 363-374).

أمّا دي سوسير DU SAUSSURE فقد عمد إلى اعتبار اللغة نسقا مغلقا يتشكّل من علامات دالّة، تتصّف بأنها "لا تربط شيئا باسم بل تصورا بصورة سمعية" (سوسير، 1984، صفحة 88)؛ أي أنها "كيان نفسي ذو وجهين" (دي سوسير، 1984، صفحة 88)، هما عنده الدال والمدلول، ويرتبطان بعلاقة غير مبررة منطقيا أو اعتباطية. (سوسير، 1984، صفحات 89-90) وسنقف في افتراضات دي سوسير هذه على تأثيرات ذات قدر كبير من الأهمية، دفعت مختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية إلى تبني مقولاتها التي ساهمت، بشكل مباشر، في تأسيس براديجم جديد سمي بالبنوية (بؤس البنوية صفحات 30، 36) يتعاطى مع الموضوعات على أنها أنساق أو بنى مغلقة تحكمها مجموعة من العلاقات الداخلية. وهو بإناطته لمفهوم العلامة بالحياة النفسية، يكون قد "ربط مسائل اللغة بمسائل الفكر التي نعتبرها مكتسبة والتي لا يعرف عنها عالم اللغة إلا القليل بالمقارنة مع ما يعرفه عن اللغة." (دولودال بالتعاون مع حوويل ريطوري، 2004. صفحة 43)، ومن هنا يكون صاحب "المحاضرات العامة" قد أسّس لسانياته على أرضية هشة ومفاهيم مضطربة، خاصّة مفهوم الدال والمدلول والعلاقة الاعتباطية، التي تعرضت للكثير من النقد إذ "من الممكن [كما يقول ليونارد جاكسون] قيام هذه الألسنية العلمية دون مفهوم الدالول [العلامة]، الذي يتألف من دال ومدلول، فعلى الرغم من أن هذا المفهوم هو الإسهام الأكبر بين إسهامات سوسير، فإنه مقولة بالغة التشوش والاضطراب... وقناعتي الشخصية أنّ ثمة ضرورة للتخلص من هذا المفهوم ووضع جانبا" (جاكسون، صفحة 31). يعود هذا الاضطراب إلى أنّ التقسيم الثنائي للعلامة، القائم على التخمين النفسي، هو في الحقيقة، إعادة إحياء للثنائية العتيقة

بين المادّة والروح أو الحسي والعقلي "وبذلك يشتبك مفهوم العلامة مع المفاهيم الأساسية في نزعة مركزية اللوجوس، وهي مفاهيم من الصعب على سوسير أن يغيرها حتى لو أراد ذلك" (كوللر، 2005، ص99). ثمّ إن مفهوم الصورة Image بنوعيتها السمعية والذهنية، يحيلنا على فكرة الأنسوخ أو النسخة التي تحاكي الأصل، فالصورة الذهنية ليست هي الأصوات الماديّة بل نسختها النفسية، كما أنّ التصرّو أو الصورة الذهنية ليس هو المرجع بل النسخة التي يستحضرها ذهن لهذا المرجع، كأنّي بهذه التصورات السوسيرية تقوم، هي الأخرى، باستنساخ سرير أفلاطون وتلفّه بغطاء لساني. بالإضافة إلى أنّ مفهوم الصورة عند سوسير يقوم على فكرة عزل اللغة، أو فصل العناصر الصورية أو الشكلية عن المحتوى، وهو ما أدّى إلى قيام المنهج البنيوي للتحليل (كلارك، 2015، صفحة 117) الذي لا يكثرث للمعنى بل يبحث في الدلالات القائمة بين العلامات المحايثة؛ أي أنّ التدليل عند البنيويين -الذين لا يتكلمون عن المعنى بل الدلالة- لا ينبع من أصل مفارق للغة، وإنّما من العلاقات الصورية أو المحايثة.

ورغم أن العلامة عند دي سوسير لا تكثرث للمعنى المستمد من أصل مفارق، وتهمّش، بمبدأ العلاقة الاعتبارية، المرجع الواقعي، إلّا أنّ سوسير -ويا للمفارقة!- اختار صورة الشجرة (سوسير، 1984، صفحة 89) مثالا على المدلول عليه، أو المرجع الذي تستنسخ منه العلامة مدلولها، ولنا أن ننظر فيما "هناك من علاقة حميمة تجمع بين الأنسوخ والشجرة. وذلك من جهة أنّ الأنسوخ يعيدنا دائما إلى الجذر الواحد" (حنا، 2011، صفحة 50 بتصرف). إنّ دي سوسير يحاول أن يجعل من الرمزي -إذا استعرنا مفاهيم جاك لاكان Jaque lacan- مثالا للواقعي أو نموذجاً له، وبذلك يقارب الواقع، الذي هو عند جاك لاكان غير موجود أصلاً، بنموذج نظري لا يمكن أيضاً أن نستدلّ على وجوده، ليكون بذلك قد فرض على هذا الواقع مثالا أو نموذجاً يشبه إلى حدّ بعيد فراش بروكيست في الأسطورة الإغريقية، ومن هنا يمكن أن نفهم المبدأ الذي قامت عليه

التوجهات التنظيرية في حقل العلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة في مرحلة البنيوية؛ فثنائية التنظير والتطبيق، أو محاولة فرض نموذج أو مثال يسقطه الباحث على موضوع دراسته، إنما هو صورة من صور الاستنساخ، الذي يهدف إلى مطابقة تصور أو صورة سمعية لموضوع يتم استحضاره في ذهن المتكلم أو المفكر.

ففي نظرية الأدب، على سبيل التمثيل، يتم إسقاط نموذج تجريدي متشعب بإيديولوجيا أو إيديولوجيات مختلفة على النص الأدبي الذي لا يمت، في الواقع، إلى هذا النموذج بأي صلة، وبذلك يكون حال النص مع ناقده كحال المسافر الذي يضطر -تحت تهديد بروكيست- إلى أن يقلص أو يمتط بدنه موافقة لسرير هذا الطاغية. إذا كان هذا الأمر يبدو واضحا جليا عند طائفة من النظريات النسقية أو البنيوية، ذات السمة التجريدية كالسرديات البنيوية وغيرها، فإن بعض المقاربات ما بعد البنيوية، المتشككة والمتوجسة من فكرة التنظير، لم تسلم هي الأخرى من لوثة مطابقة النص للنموذج، وذلك لأنها - وإن ادّعت غير ذلك - تركز إلى لغة شارحة أو وصفية، تتطلب، هي الأخرى، لغة شارحة، وهكذا إلى ما لا نهاية من اللغات، وبذلك تفقد هذه اللغة كل مصداقية في معالجة الوقائع، وهو ما سعى جاك دريدا Jaques Derrida إلى نقده عندما بيّن "أن كل مدلول هو نفسه يحتل موقع الدال. ومن ثمة فهو لا يعمل على تثبيت العلامة في أي واقع خارج - لغوي. إذن كيف، بعد هذا كله، أن نتوصل إلى مدلول خالص ما قبل - لغوي؟ لا نستطيع أن نشرح ما (تعنيه) أية علامة أو أي نص دون إنتاج نص آخر. أي إنتاج طقم مواز من الدوال. إن العلامات لا تختلف عن بعضها فقط بل تختلف عن نفسها أيضا، ومن ثمة فإن طبيعتها لا تتألف من الاختلاف الجوهرى أو الاختلاف العلائقي بل من الانزياح أو الأثر. الأثر الذي تتركه سلسلة غير محدودة وغير ثابتة من إعادة التدليل. تسم فكرة الأثر حضور العلامة بالغياب المتحقق على شكل اختلاف وإرجاء داخليين. الإرجاء الذي لا نهاية له، لأي معنى نهائي" (سالوزانسكي، 2004، صفحة 61) نقد اللغة الشارحة من

هذا المنظور، لم يؤدّ فيما يبدو، إلا إلى محوها مطلقا باسم التشثيت والتفكيك، وتغيب العلامة كليّة، هروبا من فكرة الأصل أو المدلول المتعالي، لكنه هوى بين أحضان اللعب الحرّ (كونز هوي، 2005، صفحات 121-122)، أو غير المشروط والعدمية والفوضى، وفي الأخير ابتلعه منطق الميتافيزيقا واللغة، التي أراد أن يضرب بعضها ببعض من أجل الكشف عن منطق الحضور فيها، ليجد نفسه قد فرض منطقا لغويا آخر مبنيا على الغياب والأثر والتبعثر؛ أي أنه قام، من حيث أراد أن يزيح مركزية الحضور، بتنصيب مركزية أخرى هي مركزية الغياب؛ هذا الغياب الذي يختفي وراء اللغة كظلّ لها، ثم إنّ جاك دريدا رغم محاربته لفكرة الأصل والنموذج، لم يستطع هو كذلك، مقاومة إغراء هذه الفكرة فنصب صنما آخر سمّاه "(الكتابة البدئية archi-writing) وهي نمط من الكتابة سابق للكتابة نفسها، أي ذات ميزة قبلية تكون نموذجا متصورا للكتابة قبل تجربة الكتابة نفسها..." (عبد الله إبراهيم، 1996، صفحة 121) أثار جاك دريدا جدلا كبيرا بفكرة أولوية الكتابة على الكلام، وهو في ذلك يهدف إلى إزاحة سلطة حضور الصوت والذات، ورغم هذا لم يتخلّ عن المفاهيم السوسيرية، الموظفة أساسا على العلامة السمعية المنطوقة لا المرئية المكتوبة، أعني بها الدالّ والمدلول، مبررا ذلك بأنّ نقد الميتافيزيقا لا يتمّ إلا داخل الميتافيزيقا ذاتها (دريدا، 1993، صفحة 236) وهو ما يبين أنّ المنطق اللساني النصّي، والنفسي، والفينومينولوجي، ينهل كله من منهل معرفي واحد، يقوم على ثنائية التظير والتطبيق، والنموذج والنسخة، ويغلق النسق تحت اسم النظرية؛ فمفهوم النظرية في الحقيقة هو تسييج للمفاهيم ضمن دائرة مغلقة تحصر الوجود في جدران ضيقة، فكيف للغة أن تكون بيتا للوجود كما زعم مارتن هايدغر؟

وما نستنتجه من استحضارنا لجاك دريدا في هذا المقام هو أنّه سعى، في فلسفته، إلى توظيف، ثمّ تجاوز مفهوم العلامة عند دي سوسير، لكنه ظلّ حبيس منطق اللغة التي تشكّل دائما محور تفكيره (الحلقة النقدية، صفحة 116)، فقصارى جهده، كما وصفه

فابيان تاربي أنه "نظم الفكر تحت ذريعة غموض اللغة" (آلان باديو، 2014، صفحة 10). وهو العطب الذي سعى جيل دولوز Gilles Deleuze إلى تلافيه، بمجاوزته للمنطق اللساني، وبتجديده لمفهوم العلامة، وإخراجها من المنعرج اللغوي إلى الأفق الأونولوجي.

4. الجذور وعنف المعنى:

أخرج جيل دولوز، بمشروعه الفلسفي، الفلسفة من وظيفة النقد إلى إبداع المفاهيم، محدثا بذلك ثورة إبستمولوجية على العديد من الأصعدة والمجالات المعرفية، ومنها المجال الأدبي الذي أولاه دولوز مكانة خاصة؛ أين أفرد دراسة مستقلة لبروست وأخرى لكافكا، وفي مثل هذه الأعمال ذات الطابع الإجرائي، يمكن لمتتبع هذا المشروع أن يفهم كيف تشغل المفاهيم الدولوزية، وترتحل من مجال إلى آخر، وهي في الأصل من طبيعة ارتحالية؛ فالمفاهيم، عنده لا تعرف الاستقرار والتوطن أو الأرضنة إلا وهي صائرة (من الصيرورة) إلى اللااستقرار واللاتوطن أو اللاأرضنة، ولعل مفهومومي: المفهوم ومسطح المحايثة من أهم المفاهيم التي أبدعها جيل دولوز حتى عرف بفيلسوف المفهوم؛ لأنه أخرج الفلسفة من المنعرج النقدي إلى المنعرج المفهومومي فما الذي يعنيه بهذين المفهومين؟ وكيف ساهم هذان المفهومان في انفتاح النسق عند جيل دولوز؟

درجت التقاليد البحثية على اعتبار المفهوم شكلا تجريديا يصاغ بطريقة مفارقة لموضوعه، كأنه اختيار من بين مجموعة اختيارات، يسعف صاحبه للوصول إلى نتائج يحددها مسبقا على شكل افتراضات، بحيث تكون القواعد مضبوطة، والطريق واضح المعالم، والحقيقة لا مناص من الوصول إليها عبر تحصيل نتائج معلومة، ومن هنا لا يكون المفهوم إلا تنويعا بلاغيا نظريا يسعى الباحث إلى إثبات فاعليته المعلومة مسبقا. هذا المنظور يجعل من المفهوم أداة مجردة تصل بين الذات والموضوع أو بين الباحث وموضوع بحثه، وهي أداة بلاغية صرفة يختارها الدارس أو يصطلحها بمعزل عن أي

شرط، في حين "أنّ المفهوم ليس تمثلاً مجرداً يغذي أفكاراً عامة، أو وصفاً يؤدي إلى نوع من التعالي" (نور الدين أفاية، 2020، ص412) أي أنّه ليس "كيانا متعاليا بالغ التجريد، إنه على خلاف ذلك يحيل على أشياء واقعية شديدة البساطة، وهذا ما يجعله مشروطاً بظروف طرحه" (محمد آيت حنا، 2011، ص73) إذ ليس للمفهوم علاقة بالتنظيرات الأكاديمية والاصطلاحات العلمية المحضّة، بل إبداع تفرضه ظروف خاصّة وسياقات محدّدة وشروط مسبقة، يمكن أن نقول أنّه هو من يختار صاحبه ويصطاده بالقدر الذي يكون فيه هذا الأخير مبدعه وصانعه. إنّ المفهوم يحتاج إلى خروج عن المألوف أي إلى إبداع وابتكار، كما يقول جيل دولوز، و"إبداع المفهوم لا يقتصر على المستوى الخطابي أو البلاغي أو على التنويع، مهما كان مختلفاً، طالما أنّه لم يقترح تنويعاً يضيف بعداً أو معنى جديداً بوصفه توليداً للفوارق، وفعل صيرورة" (أفاية، 2020، ص414) فالمفاهيم أحداث وصيرورات وليست ماهيات (عمر كوش، 2002، ص42) أو أشياء مفكراً فيها أو تأملات منعزلة عن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية، أي أنّ المفهوم قبل أن يكون فاعلاً ومؤثراً فهو منفعل ومتؤثر.

أما مسطح المحايثة فهو من المفاهيم التي يعول عليها كثيراً عند دولوز، وهو عنده "مصدر المفاهيم الفلسفية وما يحيط بها ويجعلها ممكنة دون أن يتعالى عليها، تماماً كالطاولة التي تعتمد عليها الكؤوس لتثبيت نفسها، ولو أنّ صورة الكؤوس صورة سكون وثبات، وحقيقة المفاهيم أنّها حركة (أحداث)، أي درجات شدّة تتحرك بسرعة لا متناهية وغير منقطعة..." (عادل حدجامي، 2012، ص155-157) لا تتحرك المفاهيم إلا ضمن مقام أو بساط أو مخطط يضمّ بعضها إلى بعض شبهه دولوز وغوتاري بالموجة الكبيرة التي تضمّ موجات صغار، كما شبهاه بـ: "الصحراء التي تؤمها المفاهيم دون أن تتقاسمها. والمفاهيم ذاتها هي المناطق الوحيدة في المسطح، ولكن المسطح هو الوحيد الذي يمسك بالمفاهيم. والمسطح ليس فيه مناطق أخرى غير القبائل التي تسكنه وتتنقل

فيه؛ والمسطح هو الذي يؤمن اتصال المفاهيم، بواسطة ترابطات تتزايد على الدوام؛ والمفاهيم هي التي تؤمن إعمار المسطح وفق مساحة تتجدد وتتغير باستمرار" (جيل دولوز وفليكس غوتاري. 1997. ص55-56) فلا مفهوم بلا مسطح يتحرك في مساحته، كما لا وجود لمسطح خال من المفاهيم؛ فالمفاهيم للمسطح كالتضاريس للإقليم.

وإذا كان المفهوم، عند جيل دولوز، من طبيعة فلسفية، فهذا لا يعدم ارتحاله إلى مجال الأدب؛ مجال الأحاسيس والانفعالات؛ ذلك أنّ الحدود بين الفلسفة والعلم والفن، لا ينفي التضاييف والتجاوز بين هذه المجالات، بل لا بدّ، لتطوير أيّ مجال منها وإزالة التكلّس عن مفاهيمه، إلى مثل هذا التضاييف والتجاوز، ولعلّ هذا هو ما كان يحرك المشروع الفلسفي لدولوز.

وبما أنّ مفهوم "العلامة" قد شغل حيّزا مهما ضمن قراءات دولوز الأدبية، حيث عمل على إخراجها من رواسبه اللسانية والنفسية ومن طابعه التجريدي إلى طابع حسيّ انفعالي، يلائم الطبيعة الحيوية للأعمال الفنية، وبذلك أعاد جيل دولوز توطين المفهوم ضمن مسطح مختلف وتربة مغايرة، مستغلا طبيعته الارتحالية، ليحدث نقلة جديدة يفرضها فعل التلاقح بين المجالات المختلفة: العلمية والفلسفية والفنية. ولعلّ أول ما يلفت الانتباه في مفهوم العلامة عند دولوز هو خلوه من التصنيف والعزل والتجريد؛ حيث لم تعد هناك حدود بين الأنواع المختلفة للعلامات، كما يمكن أن نراه عند دي سوسير وشارل سندرس بيرس ومن اقتفى أثرهما، فالإشارة والأيقونة والرمز كلّها علامات، والعبرة ليست بالنوع، بل بخطر الوظيفة التي تشغلها العلامة، حيث تدفعنا إلى التفكير وترغمنا عليه "ما يعنيه هذا هو أن الفكر لا يكون ممكن التحقق، دون وجود شيء يجبرنا على التفكير، أي شيء يعنفه، إذ وراء الفكر نجد شيئا أهم منه هو الذي "يبعث على التفكير" "donner à penser." (دولوز، 2021، صفحة 49) وما يبعث على التفكير لن يكون إلا عنف العلامات المبنوثة في العالم بأشكال وصور مختلفة: وجوه وملامح، كتابات

ورسوم، آثار وأشياء وغيرها، وهي جسور تربط بين الحاضر والمستقبل والماضي بشكل جذموري يبعثر الزمن ويخرجه من منطق الخط والاستمرارية، إلى منطق الخطوط والانكسارات.

سيحيلنا مفهوم العلامة على مفاهيم مختلفة، كالصيرورة والرغبة والجذمور والاختلاف والتكرار والحدث إلخ، وفي كلٍّ منها مدخل مغاير، لا يستند إلى بداية ونهاية، أو إلى أصل ومنتهى، بل هي كلها بدايات ونهايات، اتصالات وانفصالات، تدفقات وانقطاعات، توسّطات تجعلنا أمام متاهة كريستالية، فحديث العلامة عند دولوز سيجرنا، لا محالة، إلى كئيبان جارفة لا نستطيع تحديد وجهتنا معها، لأنها تحيل، كما ذكر في حوار له مع ريمون بيلّور وفرانسوا إيوالد، "إلى أنماط للحياة وإمكانية للوجود. إنها أعراض لحياة متدفقة أو ناضبة... هناك رابطة عميقة بين العلامات والحدث والحياة والحيوية **vitalisme**. هذه الرابطة هي قوة الحياة غير العضوية تلك التي يمكن أن توجد في خطّ

من خطوط الرسم أو سطر في الكتابة أو الموسيقى." (دريدا وآخرون، 2004، ص51) وهنا إذا كان ثمة من مشكلة، فلن تكون الندرة أو الاختزال، بل الكثرة والتدفق، أو الانبعاث والانتشار السرطاني والشيطناني كما يحلو لبيونغ- شول هان أن ينعته (بيونغ- شول هان، 2021، صفحة 127). إنه منطق الجذمور لا الجذور، والخريطة لا الأنسوخ، والوفرة لا الندرة، وفي كلٍّ ذلك يظهر دولوز مولعا بالحياة وتقلباتها، مبعدا -مثله مثل سلفه نيتشة- لكل القوى الارتكاسية والأصوات الأخلاقية، التي تتادي بالفضيلة وتضمّر الرذيلة، وتدعو إلى الزهد تحت سعار الرغبة المقموعة، وفي هذا يتبدى بشكل فاضح نفاق العصر وعرج المجتمع وازدواجية معاييرها، التي لا بدّ -حسب دولوز- أن نقابلها بالمقاومة والعنف لا بالمسايرة والمداهنة. وهو نفس المبدأ الذي يتمّ فيه ملاقات العلامة، يتم بضمير مجهول أو بالضمير الرابع كما يسميه دولوز، ففعل الملاقاة لا تقوم به ذات عارفة واعية بشكل إرادي، وهو ما لا يسمح بمجاوزة حدّ التعرف الساذج على الأشياء

إلى فعل التفكير، "هكذا عوض فكر يعتبر نفسه إراديا، نجد أنفسنا أمام ما يجبر على التفكير، وما يكون مجبرا على التفكير، أي الفكر الإرادي الذي لا يمكن، في مجموعه أن يفكر إلا في الماهيات. فوحدها الحساسية تستطيع أن تدرك العلامة باعتبارها علامة، ووحدها القوة الذهنية، ووحدها الذاكرة أو التخيل يقدران على شرح المعنى..." (دولوز، 2021، صفحة 53). ينتقد دولوز بشدة في هذا المقام مفهوم التمثّل أو التصوّر la représentation ويعتبره خرافة قائمة على الذات المتحكمة في موضوعها بتوسّط الوعي، فالموضوع مدرك من خارجه أي من داخل الذات المؤولة التي تقوم باستنساخ صورة طبقا للأصل، أمّا الملاقاة ففعل بلا فاعل أو بفواعل متعددة، فاقد للإحداثيات التقليدية، أشبه بالجدّمور الذي ينمو بصيغة عشوائية، أو بالخريطة التي تعبّر عن عالم بلا مرجعية "لقد وضعت فكرة الملاقاة جيل دولوز عند عتبة السيميائ كفعل وحركة وصيرورة من غير أي وسائط على طريقة فيرديناند دي سوسير (1857-1913)، فلا اللغة، ولا التمثيل كوسيط للمعرفة، ولا ثنائية الدال والمدلول كفيلة بملاقاة العلامات" (رسول محمد رسول، 2015، صفحة 328)، ولعل هذا الطرح هو الذي أوحى إلى بعض التوجهات الفنية المعاصرة بالتخليّ عن فكرة العمق والمسافة، التي تتطلب متلق غوّاص وعداء في الوقت نفسه، يوظّف ذخيرته التأويلية لترجمة الهوية الدلالية المتوهمة التي تفصله عن الموضوع (بيونغ-شول هان، 2020، صفحات 11-20)، فالمعنى عند دولوز ملفوف في العلامة وبلوغه "ليس سوى بسط لثنيات نسيج العلامة" (مانغ، 2002، صفحة 179) والمعنى، بهذا المعنى، هو الطيّة نفسها le pli، إذ العلامة ليست ظرفا يحتوي على المعنى، أو جسدا يحمل روحا مفارقة، بل هي المعنى ذاته، وهي سابقة للغة وللغة الذهنية، عكس العلامة الأفلاطونية التي تكون لاحقة لهما (دولوز، 2021، صفحة 55)؛ أي أن فعل التفكير، عند أفلاطون وأتباعه [ومنهم سوسير]، سابق للعلامة بحيث يتسنى له تأويلها وقراءتها، وفي ذلك فرض للدلالة من خارج العلامة. أمّا العلامة الدولوزية فهي التي

تحتّ الفكر على التفكير، وترغمه عليه، عبر فعل التلاقي أو الملاقاة، التي تتطلب نوعاً من الحساسية تجاه الأشياء حيث "لا يستطيع الإنسان أن يكون نجاراً ما لم يكن له إحساس تجاه العلامات الخشب، ولا يستطيع أن يكون طبيباً ما لم يكن يملك إحساساً بعلامات المرض، إنّ الموهبة استعداد أولي اتجاه العلامات" (حموم، 2019، صفحة 98) فقد أولى دولوز كبير اهتمام بالحساسية أو الإحساس والرغبة والعواطف والانفعالات، ليوطن العلامة في صميم الجسد/الجسم، وفي ذلك امتداد لفلسفة الحدس البرغسونية، وحلولية سبينوزا، التي تذكرنا بوحدة الوجود عند المتصوفة، والفلسفة الإحيائية vitalism، والعقائد الضاربة في القدم كالطوطم والمسح والسحر [اعتبر دولوز نفسه ساحراً في كتابه ألف ربوة]، وهو ردّ فعل طبيعي منه، على هيمنة اللوغوس والدالّ المستبد أو الإمبريالي كما اعتاد أن يصفه.

الخاتمة:

ما نخلص إليه في الختام هو أنّ الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز استطاع أن يفتح على نسق متعدد، قائم على مناهضة المفاهيم الكلاسيكية، التي تشكّل شبكة أو شجرة مترابطة الجذور، قوامها لسانيات دي سوسير، وفينومينولوجيا هوسرل، والتحليل النفسي الفرويدي، وهي توجهات فرضت منطق الوحدة وصرامة المنهج. ورأينا، كذلك، كيف تمكن هذا الفيلسوف من تجاوز المنعرج اللساني النصّي الشجري ونسقه المغلق، ويفتح على عتمة الأحاسيس والانفعالات والرغبات ذات الطبيعة الجذمورية، بعد أن أبدع طائفة من المفاهيم الحيّة مثل المفهوم ومسطح المحايثة، ووطن مفهوم العلامة في مسطح مغاير وتربة مختلفة.

هوامش:

¹- يعرف إيكو هذه المفاهيم في الفقرة الآتية: "المؤشر علامة لها رابط فيزيقي مع الموضوع الذي تحيل عليه... الأيقونة هي علامة تحيل على موضوعها وفق تشابه يستند إلى تطابق خصائصها الجوهرية مع بعض خصائص هذا الموضوع. الرمز علامة اعتباطية، تستند في ارتباطها مع موضوعها إلى عرف: أبرز مثال على ذلك هو العلامة اللسانية." (إيكو، 2010،

ص91) هذا التصنيف يضعنا قبالة ثلاثة أنواع من العلامات: المؤشر وهو علامة طبيعية عادة كالدخان الذي يدلّ على وجود نار، والأيقونة أو الصورة التي تشبه أختها فهي علامة عليها، والرمز الذي يتدخل المجتمع في تشكيل معناه دون أن تكون له علاقة مبررة منطقياً مع هذا المعنى.

قائمة المراجع:

- إبراهيم عبد الله ، الغانمي سعيد ، علي عواد. معرفة الآخر. مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة. المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ، ط2، 1996.
- آيت حنا محمد. الرغبة والفلسفة، مدخل إلى قراءة دولوز وغوتاري. دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب. ط1، 2011.
- إيكو إمبرتو. السيميائيات وفلسفة اللغة. تر: أحمد الأصمعي. المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان. ط1، 2005.
- إيكو إمبرتو. العلامة، تحليل المفهوم وتاريخه. تر: سعيد بنكراد. المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان ط2، 2010.
- باديو آلان وترونج نيقولا. في مدح الحب، تر: غادة الحواني. دار التنوير. مصر، لبنان، تونس. ط1، 2014.
- _ بارت رولان وآخرون. النقد والمجتمع، حوارات. ترجمة وتحرير فخري صالح. دار كنعان، ط1، 2004.
- بنعبد العالي عبد السلام. أسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقا. دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب. ط1، 1991.
- بنكراد سعيد. السيميائيات، مفاهيمها وتطبيقاتها. منشورات الزمن. الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2003.
- بنكراد سعيد. سيرورات التأويل، من الهرموسية إلى السيميائيات. الدار العربية، الأمان، الاختلاف. لبنان، المغرب، الجزائر. ط1، 2012.
- بودريار جان ، الفكر الجذري، أطروحة موت الواقع، تر منير الحجوجي وأحمد القصور، دار توبقال، المغرب، ط1، 2006..
- بودريار جان ، المصطنع والاصطناع، تر: جوزيف عبد الله، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، ط1، 2008.
- جاكسون ليونارد. بؤس النبوية الأدب والنظرية النبوية. تر: ثائر ديب. المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2014.
- جيمينيز مارك، ما الجمالية؟ تر: شربل داغر، المنظمة العربية للترجمة بيروت، لبنان، ط1، 2009.
- ريدا جاك وآخرون. مسارات فلسفية. تر: محمد ميلاد. دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2004.

- دولودال جيرار بالتعاون مع ريطوري حوويل ، السيميائيات أو نظرية العلامات، تر: عبد الرحمن بوعلي، دار الحوار، اللاذقية، سورية. ط1، 2004.
- دولوز جيل. خارج الفلسفة، نصوص مختارة. تر: عبد السلام بنعبد العالي وعادل حدجامي. دار المتوسط، إيطاليا، ط1، 2021.
- دولوز جيل. نصوص مختارة، ترجمة وليم العوطة. منشورات الصداقة الفلسفية، لبنان. 2021.
- دولوز جيل وغوتاري فيليكس ، ما هي الفلسفة. تر: مطاع الصفدي وفريق مركز الإنماء القومي. مركز الإنماء واليونيسكو والمركز الثقافي العربي. بيروت، لبنان. الدار البيضاء، المغرب. ط1. 1997.
- دولوز جيل. الفرق والمعاودة. تر: عبد العزيز العيادي. دار طوى. لندن. ط1. 2015.
- دي سوسير فرديناند. محاضرات في الألسنية العامة. تر: يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة، لبنان. 1984.
- رسول محمد رسول. فلسفة العلامة، من جون سانت توماس إلى جيل دولوز. دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق. ط1، 2015.
- الرويسي زهرة. ميمياء الرغبة، في فلسفة روني جيرار. الدار التونسية للكتاب، ط1، 2021.
- الشيخ محمد. ما معنى التفكير؟. دار بدائل، الجيزة، مصر، ط1، 2014.
- عادل حدجامي، فلسفة جيل دولوز (عن الوجود والاختلاف)، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب. ط1. 2012.
- العروي عبد الله وآخرون، المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية. دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب. ط2، 1993.
- غلغان مصطفى. اللغة واللسان والعلامة عند سوسير في ضوء المصادر الأصول. دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، لبنان، ط1، 2017.
- كلارك سايمون. أسس البنيوية، نقد لتيقي شتراوس والحركة البنيوية. تر: سعيد العلمي. المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 2015.
- كوش عمر، أقلمة المفاهيم. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. المغرب، ط1. 2002.
- كونز هوي ديفيد. الحلقة النقدية، الأدب والتاريخ والميرمنبوطيقا الفلسفية. تر: خالدة حامد، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، مصر. ط1، 2005.